القرآن الكريم: وحيٌ إلهيٌّ أم تأليفٌ بشريّ

الشيخ حسّان مصطفى الحركة[1]

ملخّص

الوحيُ هو اتِّصال غيبيٌّ بينَ الله ورسوله، وقد أثار المستشرقونَ والحداثيُّونَ شُبهات عديدةً للتَّشكيك في المصدر الإلهيِّ للقرآن، وفي هذه المقالة نُناقش ثلاثَ شُبهات رئيسيّة:

1 - شبهة الوحي النَّفسي: تدَّعي هذه الشُّبهة أنَّ الوحيَ مُجرَّدُ حالة نفسيّة، وأنَّ النبيَّ محمَّد ﷺ اعتمدَ على عبقريّته وأفكاره، مُستفيدًا من الدّيانات السّابقة كاليهودية والنَّصرانية.

2 - شُبهة التَّجربة الدِّينية: تَفترض هذه الشُّبهةُ أنَّ الوحيَ تجربةٌ شعوريّةٌ أو إدراكٌ حسيٌّ مُشابهٌ للكَشف العرفانيِّ، لكنَّها تَفتقر إلى الدَّليل على هذه المُسانخة المَزعومة بين الوَحي والكَشف العرفانيّ.

3 - شُبهة التَّناصِّ (الاقتباس من المصادر السابقة): تدَّعي هذه الشُّبهةُ أنَّ للقرآن مصادرَ أصليةً مُتعدِّدةً، تَشملُ الشِّعرَ الجاهليَّ والأديانَ السّابقة، مُستندةً إلى تشابُهٍ مَزعومٍ بين آياتٍ قرآنية وأبياتٍ من الشِّعر لـ (امرئ القيس) و(أميَّة بن أبي الصَّلْت).

ومن ثَمَّ، تُناقش المقالةُ دقّةَ وصَوابيّةَ هذه الشُّبهات، وتصلُ في خاتمة البحث إلى نتيجة مفادُها أنَّ النصَّ القرآنيَّ فريدٌ وأصيل.

الكلمات المفتاحية:

الظَّاهرة القرآنيّة، الوَحي، المستشرقون، الحداثيُّون، الوحي النَّفسيّ، التَّجربة الدِّينيّة، التَّناصّ.

1 - أستاذ السطوح العليا في حوزة الرسول الأكرم ﷺ وحوزة الإمام الهادي عليه السلام - بيروت.

مقدّمة

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: 40-43].

لَطالَما كان القرآنُ الكريم، المُنزَّل على خاتَمِ الأنبياء والمرسَلينَ محمَّد -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- منذ بَدءِ نُزولِه والصَّدع بالرِّسالة وإلى يومنا، مَقصدًا لسهام أعداء الدِّين للطَّعن فيه والحَطِّ من شأنه، والتَّشكيك في إلهيَّته، ولكنَّ اللَّه يأبى إلّا أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرونَ. قال تعالى في وصف كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174].

وقال في موضعٍ آخر مُتعرِّضًا لبعض الشُّبهات التي أُثيرت حول نبيِّه المصطفى والقرآن الكريم: ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ... لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 5 – 10].

كان القرآنُ، منذ عصر الرِّسالة، ولا زالَ محورَ حياة المسلمين، وموضوعَ دراساتهم وأبحاثهم. وكانت دراساتُهم منصبّةً على فهمِ هذا الكتاب وبيان مضامينه، ووجوه إعجازه.

ولم يتسلَّلِ الشكُّ إليهم بمَصدريّته الإلهيّة، وإنْ اختلفوا في بعض القَضايا المتعلِّقة به كاختلافِهم في حدوثِه وقِدَمِه، لكنْ لم يُساوِرْهُم شكٌّ في أنَّه كتاب الله.

وفي العصر الحديث، وبعد ظهور الحضارة العلمانيّة في أوروبا، وظهور حركةِ الاستشراق، بدأ الاستهدافُ والتَّشكيك يتوجَّه إلى القرآن، وبدأت تظهرُ تفسيراتٌ جديدةٌ لظاهرة الوَحي، فقالوا إنَّه كتابٌ بشريٌّ من صنع النبيِّ بعد أن عاش تجربةً روحيّةً على درجةٍ عاليةٍ من الصَّفاء،

استطاع من خلالها أن يأتيَ بهذا الكتاب ويدَّعي أنَّه أتى به من الله. وقال آخرونَ بأنَّه إلهامٌ شعريٌّ، وآخرون قالوا بأنَّه حالةٌ من النُّبوغ عاشَها النبيُّ محمَّد والأنبياءُ السّابقون له، أو أنَّه مُتأثِّرٌ بالتَّوراة والإنجيل، وغير ذلك من التَّفسيرات لـ "ظاهرة الوحي" التي تَنتهي إلى أنَّ القرآنَ نصٌّ بشريٌّ لا إلهيٌّ، وقد تأثَّر بعضُ المسلمين بهذه الادِّعاءات، التي تعتمد على المنهج التَّجريبيّ في تفسير الظَّواهر، وتُحاول أن تَفهمَها فَهمًا ماديًّا؛ لأنَّ المنهج التَّجريبيَّ لا يَعترف بما وراء المادّة، ويَعتبِرُ كلَّ شيءٍ يقع خارج الأدوات الحسيّة يَعتبِرُه علمًا هامشيًّا أو زائفًا.

في هذه المقالة، سنُبيِّنُ حقيقةَ الوَحي، وعصمتَه، وافتراقَه عن الإلهام، وكون مصدره إلهيًّا وليس بشريًّا كما يدَّعي أصحابُ الاتِّجاه الماديِّ التَّجريبيِّ، من المُستشرقينَ والحداثويِّينَ، كما سنتعرَّض بإيجاز لأهمِّ الشُّبهات التي ساقَها المُشكِّكونَ في إلهيّة القرآن، ونَقوم بمناقشتها.

أولًا: مفهوم الوحي

1 - تعريف الوحي:

الوَحي لغةً: أصلُ الوَحي الإشارةُ السَّريعة، ولِتضمُّنِه معنى السُّرعة قيل: أمرٌ وَحِيٌّ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عن التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجَوارح، وبالكتابة[1].

قال (ابن فارس): "و، ح، ي: أصلٌ يدلُّ على إلقاء علمٍ في إخفاء أو غَيره. والوَحي: الإشارةُ، والوَحي: الكتابُ والرِّسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرِك حتّى عَلِمَه فهو وَحيٌ"[2].

الوَحيُ اصطلاحًا: يَتناسب الوَحيُ الرِّساليُّ أو الاصطلاحيُّ مع المفهوم اللُّغويّ، بعد أن كان إعلامًا خفيًّا، واتِّصالاً غَيبيًّا بين اللَّه ورسوله، يتحقَّقُ على أنحاء ثلاثة، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: 51].

1 - الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص515.

2 - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج2، ص624.

وقد عرَّفَه (السيِّدُ الطباطبائيّ) بالإدراك الغيبيِّ، قال: "... وهذا الإدراك والتَّلقِّي من الغَيب هو المُسمَّى في لسان القرآن بالوَحي"[1].

2 - حقيقة الوحي

لعلَّ كثيراً من الشُّبهات المُثارة حول إلهيّة القرآن وبشريّته ناشئةٌ من القُصور عن تصوُّر حقيقة الوَحي، يقول الأب (غيورغي فلورفسكي - Georges Florovsky)[2]: "الكتابُ 'مُوحًى به' من الله، فهو كلمتُه، لكنَّ بحثَ ماهيّة الوَحي بدِقّةٍ أمرٌ مُستحيلٌ، لأنَّه مُحاطٌ بسِرٍّ، بسرِّ مواجهة الله للإنسان. إنَّنا لا نستطيع أن نَفهم الطَّريقةَ التي سَمع بها 'قدِّيسو الله' كلمةَ سيِّدِهم، ولا كيفيّةَ تَعبيرهم اللُّغويّ عمَّا أوحى به اللهُ إليهم..."[3]. ولأنَّ الوحيَ أمر غيبيٌّ فإنَّه يتعارضُ مع المنهج التجريبيِّ والاتِّجاه الفلسفيِّ المادي[4]، لذا أنكرَهُ أتباعُها، فالتمسوا الشُّبهات حول القرآن، مُحاولينَ إثباتَ بشريّته وإبطالَ كونِه إلهيًّا مُنزَلًا من عند الله -تعالى-.

ولفهم حقيقة الوَحي بشكل أفضل، سنستعرض ثلاثةَ اتِّجاهاتٍ في التُّراث الإسلاميِّ في تصوير حقيقة الوَحي، وكُنهِ الاتِّصال بين الله والأنبياء عليهم السلام:

أ - الاتِّجاه الكلاميّ

يَرى أصحابُ هذا الاتِّجاه أنْ لا سبيلَ إلى الوصول إلى الاتِّصال حقيقة بين الله وأنبيائه، وأنَّ ما بين أيدينا من الأدوات المعرفيّة عاجزةٌ عن معرفة حقيقة الوحي. يقول (السبحانيّ): "وأمَّا

---

1 - الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج14، ص305.

2 - غيورغي فلورفسكي: مفكّر دينيّ وعالم تاريخ روسيّ أرثوذكسيّ، ومن نشطاء ورواد الحركة المسكونيّة. ولد في يليزافيتغراد (الإمبراطوريّة الروسيّة) سنة 1893م، شغل بين عامي 1956 و1964م كرسيَّ تاريخ الكنيسة الشرقيّة في جامعة هارفرد. حاز درجاتٍ علميّة فخريّة متعدّدة، وكان عضوًا في الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم. توفيّ عام 1979م. <https://ar.orthodoxwiki.org/>.

3 - فلورفسكي: الكتاب المقدّس الكنيسة والتقليد (وجهة نظر أرثوذكسيّة)، ص31.

4 - هــو اتّجاه أو منهج يدعو إلى اعتبار الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة أو التبرير، وهو أحد المذاهب الفلسفيّة الّتي تختصّ بدراسة الوجود والكون، إلى جانب المذهب العقلي.

الوحيُ الذي يختصُّ به الأنبياء، فإنَّه إدراكٌ خاصٌّ متميّزٌ عن سائر الإدراكات، فإنَّه ليس نتاجَ الحسِّ ولا العقل ولا الغريزة، وإنَّما هو شعورٌ خاصٌّ، لا نعرف حقيقتَه، يُوجِدُه الله سبحانَه في الأنبياء.. لا يَغلط معَه النبيُّ في إدراكه، ولا يَشتبِهُ، ولا يَختلِجُه شكٌّ، ولا يَعترضه ريبٌ في أنَّ الذي يُوحي إليه هو الله سبحانه..."[1].

ب - الاتِّجاه الفلسفيّ (الحكمة المتعالية)

يَرى (السيِّد الطباطبائيّ) أنَّ الوحي هو من نوع العلم الحضوريِّ[2]، يمتَاز بالعِصمة[3]، هو شعورٌ خارقٌ للعادة، خفيٌّ عن الحواس، وأنَّ هذا العلمَ لا يُغلَب، ورافعٌ للاختلافات الاجتماعيَّة، وهو القوة التي تمَيَّز بها الأنبياءُ عن غيرهم. وهو يَختلف عن النُّبوغ، العقلِ العمليّ، الفكريِّ المتعارف لدى النَّاس[4].

على أنَّ "مدرسة الحكمة المُتعالية" تَرى أنَّ في كلا طَريقي تحصيل العلم (العلوم الاكتسابيّة والعلوم الكشفيّة) يكون المُفيض الحقيقيُّ للعلوم والمعارف مبدأً غيبيًّا غيرَ بشريٍّ، قال (صدر المتألِّهين) -رحمه الله-: "فتَكليم الله عبادَه عبارةٌ عن إفاضة العلوم على نفوسِهم بوجوهٍ مُتفاوِتةٍ، كالوَحي والإلهام والتَّعليم بواسطة الرُّسل والمُعلِّمينَ"[5].

ج - الاتِّجاه العرفانيّ

يَرى العرفاءُ أنَّ الوحي ظاهرةٌ من سنخ المُكاشفات العرفانيّة، حيث يتجلَّى العلمُ الحضوريُّ للنبيِّ الذي لا يمسُّه العلمُ الكسبيُّ الذي يَنالُه الإنسانُ بحواسِّه الماديّة منها أو العقليّة، فليس هناك مجالٌ للخطأ أو الاشتباه في ساحته[6].

---

1 - السبحانيّ: الإلهيّات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، ج3، ص. ص. -128 129.

2 - الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج 5، ص 79.

3 - م. ن. ج 2، ص 233.

4 - م. ن. ج 2، من ص 229 إلى ص 230؛ ج 5، من ص 78 إلى ص79.

5 - صدر الدين الشيرازيّ: الشواهد الربوبيّة، ص 349.

6 - راجع: حيدر الآملي: جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص451.

3 - خصائص الوَحي:

من أهمِّ خصائص الوَحي بحسب الاتِّجاهات الثَّلاثة:

أ. قابليّةُ تصديق العقل بالوَحي (عقلانيّة الوَحي): لأنَّ العقلَ لا يَدفع الأمرَ الخارقَ للعادة، ولا الأمرَ المستورَ عن الحواسِّ الظَّاهرة، وإنَّما يَدفع المُحالَ، وللعقل طريقٌ إلى تصديق الأمور الخارقة للعادة المَستورة عن الحواسِّ الظَّاهرة، فإنَّ له أن يستدلَّ على الشَّيء من طريق عِلَله، وهو الاستدلال اللِّمِّيّ، أو من لوازمه أو آثاره وهو الاستدلال الإنيِّ، فيُثبِتُ بذلك وجودَه[1].

ب. عصمة الوَحي وحامليه: (وهذه الخصوصيَّة مُهمّةٌ في المعرفة الوَحيانيَّة وفي حامليها).

ج. يَرى (السيِّد الطباطبائيُّ) أنَّ هذه المعارف محفوظةٌ ومَصونةٌ نظرًا لكونها من الله تعالى، وصادقةٌ دائمًا، وأنَّ حامليها، نظرًا لكونهم مؤيَّدين من الله -عزَّ وجل- في التلقِّي وفي التَّبليغ، لا يَقعون في الخطأ، بل هم مُنزَّهون عن الخطأ حتَّى في تصرُّفاتهم الخاصَّة والشَّخصيَّة[2].

د. العلم الوحيانيُّ، نظرًا لكونه علمًا حضوريًّا، لا يَقبل الخطأ حتَّى لدى الأفراد العاديِّين، ونتيجةُ ذلك ثباتُ الوحي وعدم قابليَّته للزَّوال والتَّغيير.

ثانيًا: شُبهات حول الوَحي (الاستشراق والحداثة)

يَعود اهتمامُ المستشرقين بالوَحي الإلهيِّ إلى العصور الوسطى، مُحاولينَ إيجاد تفسيرٍ لهذه الظَّاهرة يَتوافق مع أهداف الاستشراق الهادفة إلى إبعاد الوَحي القرآني عن حقيقة صُدوره الإلهيِّ[3]، ثمّ تَبعهم في الأزمنة المتأخرّة بعضُ الحداثويِّين العرب. وسنعرض لأهمِّ الشُّبهات التي ساقها هؤلاء للتَّشكيك بإلهيّة القرآن الكريم، ونطرحُها على طاولة البحث، ونختبر صدقيّتَها، بشكل مُوجَزٍ ومُلخَّص.

---

1 - الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 154.

2 - م. ن. ج2، ص200.

3 - مشتاق بشير: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، ص 52.

1 - شُبهة الوحي النَّفسي والنُّبوغ

يقول المستشرق الأميركيّ (دانكن بلاك ماك دانلد - Duncan Black Macdonald)[1]: "... وقد استطاع محمَّدٌ بفضل خياله المُتوقِّد أنْ يَصف اللَّهَ بصفات واضحة مُعيَّنة، مثل الأوَّل والآخِر، والظَّاهر والباطن، وأنَّه القَيُّوم"[2]. وقد اختلفت كلماتُهم ومُسمَّياتُهم للتَّعبير عن هذه النَّظريّة، فبعضُهم استعمل لفظَ "النُّبوغ" وآخرُ عبرَّ بـ"الإلهام" أو "الوَحي النَّفسيّ"، وكلُّها تُشير إلى فكرة واحدة، هي أنَّ الوحي لا يَعدو كونَه نوعَ حالة نفسيّة، وأنَّ الأنبياء لَيسوا إلاّ أناسًا يَمتلكون عقولاً مُشرقةً تَهديهم إلى صلاح مجتمعهم وسعادته، فيَضعون مجموعةً من القوانين والأحكام التي من شأنها أن تُؤدِّي إلى تطوُّر حركة الإنسان، وتَبلغَ به محلَّ السَّعادة. يقول المستشرق الألماني (ثيودور نولدكه - Theodor Nöldeke): "إنَّ محمَّدًا حملَ طويلاً في وَحدته ما تَسلَّمَه من الغُرباء، وجعلَه يتفاعلُ وتَفكيرُه، ثمَّ أعاد صياغتَه بحسب فكرِه، حتَّى أجبرَهُ أخيرًا الصَّوتُ الداخليُّ الحازم على أن يَبرُزَ لبني قَومه"[3].

والنُّبوغ عندَهم لا يَعني أنَّ النبيَّ محمَّدًا اقتصرَ على عبقريّته وما عنده من أفكارٍ فقط، بل استفاد من الدّيانات السّابقة عليه كاليهوديّة والنَّصرانيّة والحنيفيّة الإبراهيميّة، وكان لاتِّصاله باليَهود والنَّصارى، الذين التقاهم في بعض أسفاره، أو الذين التقاهم في مكّة، أثرٌ كبيرٌ في تكوين ثقافته وتوجُّهاته الفكرية، يُضاف إلى ذلك أنَّه كان مُطَّلعًا على تاريخ الرُّسل والأنبياء السّابقين، كما كانَ يَمتلِكُ رؤيةً نقديّةً استطاعَ من خلالها أن يُغربِلَ كلَّ ما تَلقّاه، ويُبقي فقط ما يَخدم تصوُّراته[4].

---

1 - دنكان مكدونالد: ت 1943م مستشرق أميركيّ من أشدّ المتعصّبين ضدّ الإسلام، يصدُر عن كتاباته روح تبشيريّة متأصّلة، وهو من أوسع المستشرقين اطّلاعًا على الدين الإسلاميّ، ومن كبار محرّري "دائرة المعارف الإسلاميّة"، ومن كتبه: "تطوّر علم الكلام والفقه والنظريّة الدستوريّة في الإسلام" صدر سنة 1908م، تعلّم العربيّة والعبريّة والسريانيّة، وله محاضرات ومقالات كثيرة بالإنجليزيّة عن الثقافة الإسلاميّة في أكثر نواحيها، ونشر بالإنجليزيّة "فهرس المخطوطات العربيّة والتركيّة في مكتبة نيوبري بشيكاغو"، وعُني بكتاب "ألف ليلة وليلة" فجمع منه نسخًا لا توجد عند غيره. انظر مجلّة المجمع العلميّ 9: 95 و 471، ودليل الأعارب145. (نقلاً عن: خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم)).

2 - فنسنك؛ وآخرون: دائرة المعارف الإسلاميّة، ج2، ص562.

3 - ثيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ص4.

4 - قاسم شعيب: تكوين النصّ القرآنيّ النبوّة والوحي والكتاب، ص 46.

ولعلَّ أكثرَ من فصَّلَ في هذه الشُّبهة هو (إميل درمنغام - Emile Dermenghem)[1] في كتابه "حياة محمَّد"، وممَّا سردَه في كتابه:

"... إنَّه [أبو طالب] لم يكن غنيًّا، فلم يُتَحْ له تعليمُ الصَّبيِّ الذي بَقي أُمِّيًّا طوالَ حياته.. ولكنَّه كان يَصطحِبُه في التِّجارة، فيَسير والقوافل خلال الصَّحراء، يَقطع هذه الأبعاد المُتنائيّة، وتُحدِّقُ عَيناهُ الجَميلتانِ بمَديَن ووادي القُرى وديارِ ثمود، وتَستمعُ أُذناه المُرهفتانِ إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نَبَئِها...

... وإلى عُكاظ جاء الشابُّ محمَّدٌ مع أبي بكر ذاتَ يوم، فسَمِعا أسقفَ نجران الشَّهير قسَّ بن ساعدة يتكلَّم. ظلَّ قسٌّ بن ساعدة ذو اللِّحية البيضاء خطيبَ الصحراء العظيم، وحَكَم العربِ زمنًا طويلاً، ففي عكاظ خطب قسٌّ النّاسَ ذات مرّة راكبًا جملاً أورقَ، فاستشهدَ بالسَّماء والبحر واللَّيل والخيل والنُّجوم...

ويَنظر محمَّدٌ طلوعَ النُّجوم الأولى... وتكون هذه النُّجومُ في ليالي صيف الصَّحراء من الكثرة وشدّةِ النُّور ما يُخيِّلُ إلى الإنسان أنَّه يَسمع صوتًا للَمَعانها، كما يُسمَعُ صوتُ نارِ موْقدٍ كبير.

والحقُّ أنَّ في السماء لآياتٍ لأولي الأبصار، والحقُّ أنَّ العالم حافلٌ بالأسرار، وأنَّ العالم سِرٌّ بنفسه، أفلا يَكفيه أن يفتحَ عينيه وأذنَيه ليَرى ويَسمع؟ ليَرى حقًّا، وليَسمعَ كلامًا لا يُعبرَّ عنه، ويَلوح له أنَّه يَسمع شيئًا مع ذلك، وهل يتطلَّب سماعُ أصوات ما وراء النُّجوم غير قلبٍ نقيٍّ ونفسٍ صادقة وروحٍ مُستعِدّة؟"[2].

يقول (السيِّد الطباطبائيُّ) تعليقًا على هذه الشُّبهة: "... وقد انحرفَ في ذلك جمعٌ من الباحثين من أهل العصر، فراموا بناء المعارفِ الإلهيّة والحقائق الدِّينيّة على ما وصفَتْه العلومُ الطبيعيّة من أصالة المادّة المُتحوِّلة المتكاملة...

---

1 - إميل ديرمنغام، المولود في باريس في 3 يناير 1892 وتوفيّ في ساموا سور سين في 15 مارس 1971، صحفيّ فرنسيّ ومسؤول أرشيف وأمين مكتبة.

2 - انظر: درمنغام: الشخصيّة المحمّديّة - السيرة والمسيرة، ص.ص.50-53. & انظر: رشيد محمد رضا: الوحي المحمّديّ، ص.ص. 131-132.

فذَكروا أنَّ النبوّةَ نوعُ نبوغٍ فكريٍّ وصفاءٍ ذهنيٍّ، يَستحضر به الإنسانُ المسمَّى نبيًّا كمالَ قومه الاجتماعيّ، ويُريد به أن يُخلِّصَهم من وَرطة الوَحشيّة والبَربريّة إلى ساحة الحضارة والمَدنيّة ... ويَتفرَّع على هذا الافتراض:

أوّلًا: أنَّ النبيَّ إنسانٌ مُتفكِّرٌ نابغٌ يَدعو قومَه إلى صلاح محيطهم الاجتماعيّ.

ثانيًا: أنَّ الوحيَ هو انتقاش الأفكار الفاضلة في ذهنِه.

ثالثًا: أنَّ الكتابَ السماويَّ مجموعُ هذه الأفكار الفاضلة المُنزَّهة عن التَّهوُّساتِ النَّفسانيّة والأغراض النَّفسانيّة الشَّخصيّة.

رابعًا: أنَّ الملائكةَ التي أخبر بها النبيُّ قوًى طبيعيّة تُدبِّرُ أمورَ الطَّبيعة، أو قوًى نفسانيّة تَفيض كمالاتُ النُّفوس عليها، وأنَّ روح القُدس مَرتبةٌ من الرُّوح الطبيعيّة المادّيّة، تترشَّح منها هذه الأفكارُ المُقدَّسة... وعلى هذا الأسلوب فسَّروا الحقائقَ التي أخبرَ بها الأنبياءُ، كاللَّوح والقلم والعَرش والكرسيِّ والكتاب والحساب والجنّة والنار، بما يُلائم الأصولَ المَذكورة.

خامسًا: أنَّ الأديان تابعةٌ لمُقتضيات أعصارها تتحوَّل بتحوُّلها.

سادسًا: أنَّ المُعجزاتِ المَنقولةَ عن الأنبياء المَنسوبةَ إليهم خرافاتٌ مَجعولة..."[1].

أ - مناقشة الشُّبهة

يُلاحَظ في هذه النَّظريّة عدّةُ أمور:

1. القَدْح في صِدقُ النبيّ ﷺ من خلال تفسير الوَحي بالنُّبوغ والعَبقريّة؛ لأنَّه ﷺ نسبَ القرآنَ الكريم إلى اللَّه تعالى، وهذا يَتعارض معَ ما تواترَ تاريخيًّا أنَّ محمَّدًا -صلَّى الله عليه وآله وسلَّم- كان من قريش، أعظمِ قبائل العرب خطرًا وقوّة ونفوذًا، ومن البيت الهاشميّ منها، وهو الذي كان يَمتاز بالنَّزاهة والطُّهر، وله السِّيادة والزَّعامة، والسُّؤددُ في مكّة، وله الشَّرفُ الرَّفيع الذي لا يُدانيه ولا يُنازِعُه فيه أحدٌ، وأنَّه قبلَ البعثة كان يُدعى "الصَّادقَ الأمين"، وكان محلَّ ثقة العرب واعتمادِهم في

1 - الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص.ص. 90-98.

فضِّ نزاعاتهم[1].

2. سلامة القرآن من الاختلاف، بحيث أنَّ النَّوابغَ -وإن علا شأنُهم- لا يَلبثُ أن يظهرَ في أعمالهم وكتاباتهم، معَ تطوُّر العلوم وكثرة التَّدقيق والتَّحقيق -لو بعد مدّة من الزَّمن- مظاهرُ القُصور والاختلاف، وهذا هو المُعتاد في علوم البشر، ولا يُعاب على أحد منهم في ذلك، وإنْ كان هدفُ هؤلاء بيانَ تلك المسائل والعلوم نفسها، لأنَّه ممّا لا يَسلم منه البشرُ، فيما أنَّ القرآن الكريم -وإنْ لم يكن يَهدف إلى بيان فنٍّ من الفنون أو عِلمٍ من العلوم بعَينه- قد تعرَّضَ لكثير من المسائل في شتّى العلوم، وحفلَ بالتَّشريعات وقصص الماضين وأخبارهم ونبوءات المستقبل وأحداثه بنَظْمٍ ولَفظٍ مُعجزٍ مع نَزوله نُجومًا[2] على مدى ثلاث وعشرينَ سنةً. فهل يَجرؤُ عاقلٌ -غيرُ مؤيَّد بالغَيب- أن يأتيَ بكتابٍ يدَّعي أنَّه "هدًى للعالَمين"، ثمَّ يُودِعُه أخبارًا في الغَيب ممّا مَضى ويُستقبَل، وفيمَن خلا مِن الأُمم، وفيمَن سيَقدمُ منهم، لا بالواحد والاثنين، بل في أبواب مختلفة من القَصص والملاحم والمُغيَّبات المُستقبلة، ثمَّ لا يتخلَّف شيءٌ منها عن صراط الصِّدق؟ وهل يتمكَّنُ إنسانٌ، وهو أحد أجزاء نشأة الطَّبيعة المادّيّة، والدَّارُ دارُ التحوُّل والتَّكامل، أن يُداخِلَ في كلِّ شأن من شؤون العالم الإنسانيّ، ويُلقي إلى الدُّنيا معارفَ وعلومًا وقوانينَ وحِكَمًا ومواعظَ وأمثالًا وقصصًا في كلِّ ما دقَّ وجلَّ، ثمَّ لا يَختلف حالُه في شيء منها في الكمال والنَّقص، وهي مُتدرِّجةُ الوجود، مُتفرِّقةُ الإلقاء، وفيها ما ظهرَ ثمّ تكرَّرَ، وفيها فروعٌ مُتفرِّعةٌ على أصولها؟ هذا مع ما نراه من أنَّ كلَّ إنسان لا يَبقى من حيثُ كمال العمل ونَقصُه على حال واحدة[3].

3. إنَّ المصادرَ المُفترَضةَ للقرآن الكريم لا تكفي لكاتب مُتمرِّسٍ لِيَكتب كتيِّبًا لا شأنَ

---

1 - انظر: ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج1، ص.ص. 197-196 & وانظر: السبحانيّ: الإلهيّات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، ج3، ص.ص. 456 - 457.

2 - عبارة "نزل القرآن نجومًا" تعني أنَّ القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى على النبي محمد مفرّقًا على مراحل وأجزاء متتابعة، وليس دفعة واحدة.

3 - انظر: الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص63.

له، ناهيك عن أنْ يُوحي رجلٌ أمّيٌّ[1] من عقله الباطن إلى نفسه كتابًا كالقرآن الكريم. أفيُصدِّقُ عاقلٌ أنَّ لقاءات مَعدودة لرجلٍ أمّيٍّ وأحبارٍ مَجهولي القيمة العلميّة جرَت خلسةً خلال أسفارِه، وبضعَ قِصصٍ سمِعَها من أعراب البادية، كافيةٌ لتكون مادّةً كتابيّة للقرآن الكريم، الذي يَحتوي على دقائق علومِ التَّوحيد وأخبار الغَيب من القيامة والجنّة والنار والملائكة والرُّسل وكتبهم وأقوامهم، وتفصيلات الشَّرائع، وإخبارات عن الملاحم والفتن وما يجري فيها، ومُحاجَّة لأهل الكتاب في اعتقاداتهم وكتبهم وشرائعهم؟!

4. إعجاز القرآن (فلا يمُكِنُ لإنسان أن يأتيَ بمثله): و"المُعجزةُ أمرٌ خارقٌ للعادة، مَقرونٌ بالدَّعوى والتَّحدِّي، مع عدم المُعارَضة، ومطابقة الدَّعوى"[2].

لقد تحدَّى القرآنُ الكريم -وما زال- المُشكِّكينَ بمَصدرِه الإلهيِّ أن يأتوا بسورة من مثله: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [البقرة: 23]. ويَظهر الإعجازُ في مقامَينِ:

أ- الإعجاز البَياني: كان أوَّلَ ما ظهرَ من إعجاز القرآن الكريم إعجازُه البيانيُّ، الذي يتمثَّل في فصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه، ورَوعة نَظمه، وبداعة أسلوبه الخاصِّ، وهذا الجانب هو الذي بَرزَ مع بداية نُزول أوائل السُّور المكِّيّة القَصيرة نسبيًّا، التي تتحدَّى -بأسلوبها الجديد الذي لم يألَفْه العربُ- فصاحةَ العرب وبلاغتَهم.

ومن الأمثلة التي ذُكرت للإعجاز بالنَّظم ما ذكرَهُ (الجرجانيّ) في كتابه "دلائل الإعجاز": **﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾** [هود: 44][3].

---

1 - بنـى بعض العلـماء أنَّ معنى الأمّيّة هو عدم تعلّم القراءة والكتابة من بـشر، وهو القدر المتيقّن جمعًا بين الروايات والنقول التاريخيّة. والاحتجاج على الخصوم بظاهر لفظ الأمّي.

2 - السبحانيّ: سيّد المرسلين، ج1، ص173.

3 - انظر: الجرجانيّ: دلائل الإعجاز، ص.ص. 46-45.

ب- **الإعجازُ المعنويُّ والمَضمونيّ:** بمُرور الزَّمن وتقادُم الأيّام بدأتْ تَظهر جوانبُ الإعجاز المُرتبطةُ بالمَضمون والمعنى في القرآن الكريم، وذُكر في ذلك عدّةُ أوجُه:

- الإخبار عن المُغيَّبات: ومنها قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [الأنفال: 7].

- الإعجاز بعدَم الاختلاف فيه: يَقول (محمَّد حسين الطباطبائيّ): "... وقد تحدَّى أيضًا بعدم وجود الاختلاف فيه، قال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: 82]... وليس فيه أدنى اختلاف في النَّظم المُتشابه، ﴿**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ**﴾ [الزمر: 23]، ولم يَقع في المعارف التي ألقاها، والأصول التي أعطاها، اختلافاتٌ يَتناقض بعضُها مع بعض ... ولو كان من عند غير اللَّه لاختلفَ النَّظمُ في الحُسن والبَهاء، والقولُ بين الشَّداقة والبَلاغة والمعنى من حيث الفساد والصحّة، ومن حيث الإتقان والمَتانة"[1].

- التحدِّي بمَن أُنزل عليه القرآن: نشأ ﷺ كغالبيّة قومه أُمِّيًّا، لا عهدَ له بالقراءة ولا الكتابة، قال -تعالى-: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [العنكبوت: 48] ... كما لم يأتِ بشيء من شعرٍ أو نثرٍ نحوًا من أربعين سنةً قبل البعثة، وهي ثُلثا عمره، ثمَّ أتى بما أتى به دفعةً، فأتى بما عجزتْ عنه فحولُ العلماء والأحبار والرُّهبان من مواضيعَ كثيرةِ العَدد، مُتباعدةِ الأغراض من الإلهيّات والمعارف، وبدءِ الخلق والمَعاد، وما وراء الطَّبيعة من الرُّوح والملك وإبليس والجنّ، والفلكيّات، والأرض، والتاريخ، وشؤون فريق من الأنبياء الماضينَ، وما جرى بينهم وبين أُممهم، والأمثال والاحتجاجات والأخلاقيّات، والحقوق العائليّة، والسِّياسات المَدنيّة، والنُّظُم الاجتماعيّة والحربيّة، والقضاء والقَدر، والكسب والاختيار، والعبادات والمعاملات، والنِّكاح والطَّلاق، والفرائض، والحدود والقصاص وغير ذلك...فهل يُمكنُ أن يَصدر هذا الاحصاءُ العجيبُ والإتقان الغريب من رجل أُمِّيٍّ لم يتربَّ إلّا في حجرِ قومٍ حَظُّهم

1 - الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص68.

من الإنسانيّة على مَزاياها التي لا تُحصَى، وكمالاتها التي لا تَنتهي، أن يَرتزقوا بالغارات والغزوات ونهب الأموال، وأن يَئِدُوا البَناتِ ويَقتلوا الأولادَ خشيةَ إملاقٍ، ويَفتخروا بالآباء ويَنكحوا الأمَّهات..."[1].

2 - التَّجربة الدِّينيّة وعلاقتها بالنبوّة والوحي: نقد وتحليل

يَبدو أنَّ أوَّل مَن استخدم مصطلح التَّجربة الدِّينيّة هو الفيلسوف (ويليم جيمس - William James)[2]، ويَنسب آخرونَ ذلك إلى الفيلسوف الألمانيِّ (شلاير ماخر - Friedrich Schleiermacher)[3]، وأيًّا كانَ فهناكَ اختلافٌ جوهريٌّ في طبيعة التَّجربة الدِّينيّة، والاتِّجاهات الرَّئيسة في ذلك اثنانِ هما:

أ. التَّجربة الدِّينيّة نوعٌ من الإحساس والشُّهود كما ادَّعى (شلاير ماخر) في كتابه المعروف "الإيمان والمسيحيّة"، يَقول: "فهذه التَّجربة هي تجربةٌ شهوديّةٌ وأصليّةٌ قائمةٌ بنَفسِها ومُستقلّة عن المَفاهيم والتصوُّرات والاعتقادات والأعمال".

ب. التَّجربة الدِّينيّة هي الإدراكات الحسِّيّة: ذهبَ إلى هذه النَّظريّة الفيلسوفُ المعاصر (ويليام آلستون - Willia Alston)[4]، فهو كان يَعتقد أنَّ التَّجربةَ الدِّينيّة تَقوم على

---

1 - انظر: السبحاني: الإلهيّات إلى هدى الكتاب والسنّة والعقل، ج3، ص.ص. 370-368.

2 - فيلسوف أمريكيّ (11 يناير 1842 - 26 أغسطس 1910) ومن روّاد علم النفس الحديث وأحد أفراد جمعيّة الأبحاث النفسيّة. كتب كتبًا مؤثِّرة في علم النفس الحديث وعلم النفس التربويّ، وعلم النفس الدينيّ والتصوّف، والفلسفة البراغماتيّة.

3 - فريدريك دانيال إرنست شلايرماخر (Friedrich Schleiermacher) (21 نوفمبر 1768 - 12 فبراير 1834)، لاهوتيّ وفيلسوف وعالم الكتاب المقدّس، أصبح مؤثرًا في تطوُّر النقد العالي، ويُشكِّل عملُه جزءًا أساسيًّا في مجال علم التأويل الحديث. وكان له أثر عميق في الفكر المسيحيّ في وقت لاحق، ويُسمَّى "أب علم اللاهوت الحديث".

4 - وليام باين ألستون (29 نوفمبر 1921 - 13 سبتمبر 2009) فيلسوف أمريكيّ. قدّم مساهمات مؤثّرة في فلسفة اللغة، ونظريّة المعرفة، والفلسفة المسيحيّة.

الأركان الثَّلاثة للتَّجربة الحسِّيّة: المُدرِك، المُدرَك، والحادثة (ظهور هذه التَّجربة). أمّا المُدرِك في التجربة الدينيّة فهو الشخص الذي يتوجّه بها إلى اللَّه تعالى، وأمّا المُدرَك فهو اللَّه تعالى أو شيءٌ فيما وراء الطَّبيعة، وأمّا ظهورُ هذه التَّجربة فهو تجلِّي اللَّه تعالى أو الشيء المذكور في قلب صاحب هذه التَّجربة، وهذه العمليّة تُسمَّى التَّجربةَ الدِّينيّة[1].

أ - التَّجربة الدِّينيّة في المُؤلَّفات الحديثة

- التَّجربة الدِّينيّة عند (محمَّد إقبال)[2]: كان (محمَّد إقبال) أوَّلَ المُفكِّرينَ المُسلمين تَنظيراً لفكرة التَّجربة الدِّينيّة في الوَحي، فهو لم يرَ فَرقًا في الماهيّة بين التَّجربة الصُّوفيّة أو العرفانيّة الشُّهوديّة وبينَ النبوّة. والفرقُ الذي يَجعل النبيَّ نبيًّا، برأيه، هو في الحالة النَّفسيّة التي يتمتَّع بها النبيُّ، التي تتجلَّى في رغبته في أن يَرى رياضتَه الدِّينيّةَ قد تحوَّلَت إلى قوًى عالميّة حيّة. وهو يَعدُّ عودةَ النبيِّ من "مقام الشُّهود" امتحانًا عمليًّا لقيمة رياضتِه، على حين يمُثِّل "مقام الشُّهود" للصُّوفيِّ غايةً تُقصَد لذاتها[3].
- التَّجربةُ الدِّينيّة عند (عبد الكريم سروش): يدَّعي (سروش) أنَّ "الوحيَ والرِّسالةَ تابعان لشخصيّة النبيِّ"، ويَصف تجربةَ الوحي للنبيِّ بقوله: "إذنْ فالمقُوِّمُ لشخصيّة الأنبياء ونُبوّتِهم هو الوَحيُ فقط. أو 'التَّجربة الدِّينيّة' في الاصطلاح الجديد. وفي هذه التَّجربة يَرى النبيُّ وكأنّ شخصًا يَحضر عندَه ويُحدِّثُه في أذُنه وقلبه بمضمون الرِّسالة السَّماويّة، ويُكلِّفُه بإبلاغ التَّعاليم والأوامر الإلهيّة للنَّاس.."[4].

---

1 - انظر: فدا حسين حليميّ: الوحي بين النبوغ الذاتيّ والتسديد الإلهيّ المباشر، ص.ص. 141-143.

2 - ولد في سيالكوت -إحدى مدن البنجاب الغربيّة- في الثالث من ذي القعدة 1294هـ الموافق 9 تشرين الثاني نوفمبر 1877م. رحل إقبال إلى أوروبّا وحصل على درجة الدكتواره من جامعة ميونخ في ألمانيا. كان وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهنديّ، حتّى أصبح رئيسًا لحزب العصبة الإسلاميّة في الهند، ثمّ العضو البارز في مؤتمر اللَّه آباد، واشتهر بشعره وفلسفته.

3 - انظر: محمد إقبال: تجديد الفكر الدينيّ في الإسلام، ص147.

4 - سروش: بسط التجربة النبويّة، ص.ص. 3 و9-10.

ب - نتائج نظريّة التَّجربة الدِّينيّة

أخطرُ النَّتائج المُترتِّبة على هذه النَّظرة إلى الوَحي هي فتحُ باب تضييق الوَحي وتوسعته بحسب تجارب مَن يأتي بعد النبيِّ ﷺ من أصحاب التَّجارب الدِّينيّة المُسانخة، ولذا لم تكن تَسميةُ كتاب (سروش) بـ "بسط التَّجربة النَّبويّة" آتيةً من فراغٍ، بل هو ناظرٌ إلى هذه القابليّة في الوَحي. يقول (سروش): ".. ومن هنا لا بدَّ من استمرار التَّجارب النبويّة الباطنيّة والخارجيّة في غَيبة النبيِّ، من موقع تعميق الدِّين واتِّساعه وإثراء تعاليمه السَّماويّة.. ولا يَنبغي أن نتصوَّر أنَّ هؤلاء العِظام ليسوا سوى شارحينَ للتَّجربة الأولى، ودورهم ليس بأكثر من تكرار تلك التَّجربة. فـ (الغزاليّ) جاء بكشوفات دينيّة جديدة، وهكذا (المولويّ)، و(مُحيي الدين بن عربيّ)، و(السهروردي)، و(صدر الدِّين الشيرازيّ)، و(الفخر الرازيّ) ... وآخرون. وأساسًا فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ تكامَلَ ونمَا بهذه الصُّورة .. فهؤلاء الأولياء لم يكونوا شارحينَ وحسب، بل مارسوا طبيعةَ الكشفِ وساهموا في إثراء التَّجربة"[1].

ومن النَّتائج الخطيرة أيضًا القولُ ببشريّة الوحي وتاريخيّته؛ فالوَحي إذا كان ناتجًا من امتزاج الجزء الإلهيّ منه بشخصيّة النبيِّ ﷺ، وشخصيّة النبيّ ﷺ جزء من حقبة تاريخيّة ذات طابع اجتماعيٍّ وثقافيٍّ مُعينَّ، فالنَّتيجة التي لا مَحيص عنها عندها هي "بشريّة الوَحي وتاريخيَّتُه"[2]، وهذا يعني ضرورةَ قراءته من خلال المَنهج الماديِّ، والتَّعامُلِ معه كمعرفة نسبيّة لا مُطلَقة.

د - مناقشة الشُّبهة

إنَّ نفسَ المُناقشات والملاحظات التي ذكرناها على الشُّبهة السابقة تَصلح لأنْ نستفيد منها في دفع هذه الشُّبهة، ونضيف إليها بعضَ الملاحظات:

- إنَّ الرَّكيزة الأساسَ في هذه النَّظريّة هي دَعوى المُسانَخة بين تَجربة الوحي والكشف العرفانيّ. وهذه الدَّعوى لم يُورِدْ أصحابُها لها دليلاً من عقل أو نقل، خصوصًا أنَّ

1 - سروش: بسط التجربة النبويّة، ص.ص. 31-34.

2 - انظر: سروش: بسط التجربة النبويّة، ص.ص. 26-27.

مفهوم "التَّجربة الدِّينيّة" مفهومٌ يَلُفُّه الغموضُ، وليس له حدود واضحة مُتَّفَق عليها عند جميع الباحثين.

- هناك فروق جوهريّة بين الوَحي والمكاشفات العرفانيّة. وسنَكتفي بذِكر فَرقَينِ منها:

الأوَّل: عصمةُ الوَحي وعدم إمكان تصوُّر الخطأ فيه، كما تقدَّم، أمَّا العُرفاء والمتصوِّفة -إن صحَّت طرقُهم وسَلِمَت من الشَّوائب- فليست لهم هذه الضَّمانةُ الإلهيّة، لذا، فإنَّ العارفَ يَحتاج إلى ميزانٍ يَقيس به صدقَ كشفِه أوّلًا، ويُفسِّر كشفَه ثانيًا.

الثاني: عدمُ الاختلاف بين النُّبوّات: لكون المَصدر بين الأنبياء واحدًا صافيًا من الشَّوائب والعوامل الفرديّة والشخصيّة تكون مَضامينُ نُبوّات الأنبياء واحدةً، تُصدِّق اللَّاحقةُ السابقةَ، وتُبشِّر السَّابقةُ باللَّاحقة. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: 48].

يقول (جوادي آملي) الفقيهُ المُجتهِدُ والفيلسوفُ والعارف المشهور: "فحين يُشاهِدُ [العارفُ] أمرًا يَبحث عن معيار يَقيس به مَشهوداته، لأنَّ كثيرًا من العُرفاء اختلفوا في الشُّهود فيما بينَهم ويَختلفون، بل أحيانًا يَظهر أنَّ مشهودَ العارف كان خطأً، ولهذا يَحتاج إلى معيارٍ يُميِّزُ به مَشهوداته الصَّحيحة والرَّبّانيّة عن المَشهودات الباطلة والشَّيطانيّة"[1].

3 - شُبهة الاقتباس من المصادر السَّابقة للقرآن: نظريّة التَّناصّ

وهذه الشُّبهة قديمةٌ، وقد ذكرَها القرآنُ الكريم، وتكرَّرت على ألسنة بعض المستشرقين. فادَّعَوا أنَّ للقرآن الكريم مصادرَ سمَّوها "المصادرَ الأصليّة للقرآن"، تنوَّعت بين الشِّعر الجاهليّ والأديان السَّماويّة والوثنيّة، فقالوا إنَّ "التَّناصَّ" و"البَين نَصِّيّة" و"التَّعالُق النَّصِّيّ" مفاهيمُ يُراد بها في التأويل الحَداثيّ أنَّ النصَّ ليس بنيةً مُغلَقةً ومُنكفِئةً على نفسها، ولكنَّه يَحمل، أراد مُنشِئُه أم لم يُرِد، بَصماتِ نصوصٍ سابقةٍ، وآثار

1 - جوادي آملي: حقيقة الدين، ص219.

مُبدعين آخَرين، تُسهم في تشكيله، وتعميق رمزيّته[1]. يقول (نصر حامد أبو زيد): "... يُوجَد التَّعالُق النَّصّيّ في القرآن، أي أنَّه نصٌّ مشكَّلٌ من مُعتقدات، وثقافات، وأدبيات أخرى، كالتَّوراة والإنجيل، والشِّعر الجاهلي، والسَّجع"[2]. وسنَقتصر على مناقشة الاقتباس الشِّعريّ والأسلوب الشِّعريّ في القرآن الكريم، ونَفي أنَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ مُشابِهٌ لِما وُجد من شعر العرب.

أ - شبهة الاقتباس من الشعر الجاهليّ

أشهر دَعاوى الاقتباس من الشِّعر الجاهليّ هي دَعوى الاقتباس من شِعرٍ يُنسَب إلى (امرئ القَيس الكنديّ)، ومنه:

دنَتِ السَّاعةُ وانشقَّ القَمَرْ عَن غَزالٍ صادَ قلبي ونَفَرْ
مـرَّ يومَ العيدِ في زينتِـــه فرَمانـــــي فتَعاطَى فعَقَرْ
بسِهامٍ من لحاظٍ فاتـــكٍ تَرَكتْني كهَشيمِ المُحتظِرْ
وإذا ما غابَ عنِّي ساعـــةً كانَتِ السَّاعةُ أدهى وأَمَرّ[3]

والآياتُ الكريمةُ التي زُعم اقتباسُها من هذا الشِّعر، هي:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29].

﴿إِنَّا أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: 31].

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَالسَّاعَةُ أَدۡهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: 46].

1 - قطب الريسونيّ: النصّ القرآني من تهافت القرّاء إلى أفق التدبّر، ص267.

2 - نصر حامد أبو زيد : النصّ والسلطة والحقيقة، ص242.

3 - (ويليام سنكلير - William Sinclair): مصادر الإسلام، ص.ص.11-12، <www.muhammadanism.org>.

- كذلك الأبيات التي تُنسَب إلى (أميّة بن أبي الصلت)، والتي فيها تقارُبٌ مضمونيٌّ وشَكليٌّ كبير مع ما ورد في بعض سور القرآن الكريم بشأن القيامة وأوصافها، هذه الأبيات صارَت مادّةً للمستشرقين لدَعمِ دَعوى بشريّةِ مصدرِ القرآن الكريم، ومَطلعُها:

ويومُ مَوعدِهِم أن يُحشَرُوا زُمَرًا يومُ التَّغابُنِ إذ لا يَنفَعُ الحَذَرُ[1]

ب - مناقشة الشُّبهة

أما بالنِّسبة إلى الشِّعر المَنسوب إلى (امرئ القيس) فنُسجِّلُ عدّةَ مُلاحظات:

- إنَّ قريشًا أفصحُ العرب وأحفظُهُم للشِّعر، وهم نقلةُ الشِّعر ورُواته وأعلمُهُم بأساليبه ومداخله ومخارجه، ولما ألقى النبيُّ سورةَ القمرِ المكّيّة على مسامعِهم، وكانوا حينَها أشدَّ النَّاس عداوةً له وحرصًا على تكذيبه وخَنق دعوته، ومع ذلك لم يدَّعوا ادِّعاء "الانتحال" هذا ولا قريبًا منه، بل شَهدوا بنَقيضِه تمامًا على لسان (الوليد بن المغيرة) و(عتبة بن ربيعة).
- إنَّ الناقِدَ الخبيرَ بالشِّعر الجاهليِّ وأساليبه وأوزانه يُدرِكُ بوضوح أنَّ هذه الأبيات الرَّكيكة، في الأسلوب والنَّظم، أبعَدُ ما تكون عن الشِّعر الجاهليّ[2].
- لم يأتِ هؤلاء المُدَّعينَ بدليل واحد يُثبتُ نسبةَ هذه الأبيات إلى (امرئ القيس)، فهي لم تَرِدْ في ديوانه على اختلافِ طبعاتِه ونُسَخِه ورواياته.

أمَّا بالنِّسبة إلى الشِّعر المَنسوب إلى (أميّة بن أبي الصَّلت) فنُسجِّلُ عدّةَ ملاحظات:

- إنَّ كثيراً من نُقّاد الأدب -ومن ضِمنهم بعضُ المستشرقين- يَرَونَ أنَّ شعر (أميّة) مَنحولٌ

1 - انظر: فنسنك؛ وآخرون: دائرة المعارف الإسلاميّة، ج2، ص.ص. 660-662.

2 - انظر: عبّاس العقّاد: اللغة الشاعرة، ص73.

عليه؛ قال المستشرق الألمانيُّ (كارل بروكلمان - Carl Brockelmann)[1]: "... (أميّة بن أبي الصلت)، شاعرُ ثقيف. أكثر ما رُوي من شعره منحولٌ عليه، ما عدا مرثيَّتَه لقتلى بدر التي مَنعَ النبيُّ إنشادَها. وزَعم (كليمن هوار) أنَّ شعرَه كان من مصادر القرآن. وهذا غير صحيح، ولكنَّ الحقَّ ما ذكرَه (تور اندريه) وهو أنَّ الأشعار التي نظر إليها (هوار) إنمَّا هي نظمٌ جَمَعَ القُصّاصُ فيه ما استخرجَه المُفسِّرونَ من موادِّ القصص القرآنيّ. ويَنبغي أن تكون هذه الأشعار قد نُحِلت لــ (أميّة) في عهدٍ مُبكِّرٍ لا يَتجاوز القرن الأوّل للهجرة"[2].

- كيف خفيَ على "قريش" و(أميّة) هذا الاقتباس البيِّنُ المُدَّعى، ودواعي الخصومة للنبيّ ﷺ موجودة؟ فقريش على ما عُرِفَت من عداوته، و(أميّة) كانوا حاسدينَ للنبيِّ ﷺ كافرينَ به؛ لأنَّ أميّةَ كان يتطلَّعُ أنَّه سيكون النبيَّ الموعودَ، كما يُسجَّل من دوافع الحسد والعَداوة أيضًا مقتلُ (عُتبة) و(شَيْبة) ابني (رَبيعَة) أبناء خال (أميّة)[3] في "معركة بدر"[4]. والطَّائفُ تَبعد عن مكّةَ اثني عشر فرسخًا (نحو 36 ميلاً)، وقد زارَها النبيُّ ﷺ، ودَعا أهلَها إلى الإسلام قبل الهجرة، فلو وقعَ هذا الاقتباسُ في القرآن الكريم من شاعر "ثقيف" المشهور فكيف خفيَ على "قريش" و"ثقيف" و(أميّة) نفسِه؟

---

1 - كارل بروكلمان (1868 - 1956م) مستشرق ألمانيّ يُعتبر أحد أبرز المستشرقين في العصر الحديث، عالم بتاريخ الأدب العربيّ. وُلِد في "رستوك" بألمانيا ونال شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت، وأخذ العربيّة واللغات السامية عن (نولدكه) وآخرين. درّس في عدّة جامعات ألمانيّة، وكانت ذاكرته قويّة يكاد يحفظ كلّ ما يقرأ. ودرّس العربيّة في معهد اللغات الشرقيّة بـ(برلين) عام 1900م، وتنقّل في التدريس، وتقاعد سنة 1935م. كان من أعضاء المجمع العلميّ العربيّ في دمشق، وكثير من المجامع والجمعيّات العلميّة في ألمانيا وغيرها، صنّف بالألمانيّة "تاريخ الأدب العربيّ" في مجلّدين، وأتبعهما بملحق في ثلاثة مجلّدات، وكلّفته جامعة الدول العربيّة أنْ يُدخل الملحق في الأصل، وينقلها إلى العربيّة، ولـ(بروكلمان) "تاريخ الشعوب الإسلاميّة" تُرجم إلى العربيّة في بيروت، وطُبع بها في خمسة أجزاء صغيرة، وفهرسان لخزانتي برسلاو وهامبورغ، يُعرِّفان بمخطوطاتهما العربيّة، وكتاب في "نحو اللغة العربيّة" بالألمانيّة.

2 - بروكلمان: تاريخ الأدب العربيّ، ج1، ص113.

3 - أمّ أميّة هي رقيّة بنت عبد شمس بنت عبد مناف.

4 - انظر: الحديثيّ: أميّة بن أبي الصلت - حياته وشعره، ص.ص. 64-66.

- إنَّ كثيراً من أصول العقائد وقصص الأنبياء فيها كثيرٌ من المشتركات بين الإسلام وأهل الكتاب، و(أميّة) عُرِفَ عنه اختلاطُه بهم وأخذُه عنهم[1].

4 - شُبهة الأسلوب القرآني والشِّعر

هناك فارقٌ كبيرٌ في الأسلوب بين البيان القرآنيِّ ودواوين العرب، فالأوَّل يتكوَّن من السُّوَر التي تَحتوي على الآيات التي تَنتهي بالفَواصل، أمّا ديوان العرب فيتألَّف من القصائد التي تتكوَّن من الأبيات التي تَنتهي بالقوافي، حيث يَعتمد الشِّعرُ على الاتِّفاق بين الفَواصل، على حين نجد أنَّ القرآنَ الكريم قد يُباعِدُ بينَ الفَواصل مع حفاظه على النَّسق الصَّوتيِّ الذي يتَّفق مع التَّركيبة الطُّوليّة المُعتمدة ضِمنًا في السِّياق، ولو كان القرآنُ الكريم من كلام محمَّد ﷺ لَما حارَ العربُ في أمرِه، ولَما اعترفوا ببلاغته وفصاحته، فنرَى (الوليد بن المغيرة) العدوَّ اللَّدودَ لرسول اللَّه ﷺ يَصف ما سمعَه من آيات القرآن الكريم، فيقول مقالتَه المشهورة: "واللَّه ما منكُم رَجلٌ أعلَمُ بالأشعار منِّي، ولا أعلَمُ برَجَزِه، ولا بقَصيده منِّي، ولا بأشعار الجنِّ، واللَّه ما يُشبهُ الذي يَقولُ شيئًا من هذا، ووالله إنَّ لقَولِه الذي يَقولُه حَلاوةً، وإنَّ عليه لَطلاوةً، وإنَّه لَمُثمِرٌ أعلاهُ، مُغدِقٌ أسفَلُهُ، وإنَّه لَيَعلو ولا يُعلى، وإنَّه لَيَحطِمُ ما تَحتَه."[2]. وقال مِثلَ ذلك (عتبة بن ربيعة)[3].

الخاتمة

1 - النتائج

أ. الوحيُ من نوعِ العلم الحُضوريِّ، يمتاز بالعصمة، فلا يُتصوَّر فيه الخطأُ أو الوَهمُ. ونتيجةُ ذلك ثباتُ الوَحي وعدمُ قابليَّتِه للزَّوال والتَّغيير.

1 - الحديثيّ: أميّة بن أبي الصلت - حياته وشعره، ص.ص.56 - 62.

2 - ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص78.

3 - ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج1، ص294.

ب. إنَّ القولَ بوُقوعِ الوحيِ وحدوثه ممّا يتقبَّلُه العقلُ، ويمُكِنُ أن يُصدِّقَ به، وإنْ كان مستورًا عن الحواسِّ الظَّاهرة.

ج. إنَّ الظَّاهرة القرآنيّةَ المُتعاليةَ بصِفتها الإعجازيّة دليلٌ على وقوع الوَحيِ وصِدقِ النُّبوّة وصحّة القَول بإلهيّة القرآنِ الكريم وامتناعِ أن يكونَ بشريًّا.

د. إنَّ عددًا من المستشرقين وكثيراً من الحَداثويِّينَ لا يَقولون بكذب دَعوى حصول الوَحي للنبيِّ، بل يُصدِّقونَ بحُدوث الوَحي، لكنَّهم فسَّروا الوحيَ بأنَّه ليس حقيقةً خارجةً ومُنفصِلةً عن حقيقة الإنسان، وليس نازلاً من عند الله مباشرة، وإنَّما هو حالةٌ مُتأثِّرةٌ بالطَّبيعة الإنسانيّة، ومُختلِطةٌ بالأبعاد النَّفسيّة والثَّقافيّة التي كان يَعيشُها النبيُّ في ذلك الزَّمان. وقد اعتبرَ (مونتغمري وات - Montgomery Watt) أنَّ النبيّ (محمَّدًا) صادقٌ في القولِ مُخطِئٌ بالاعتقادِ بشأن الوَحي[1].

ه. إنَّ المحورَ الأساس للنُّصوص الحداثيّة هو تَرجيح البُعد الماديِّ الحسيِّ، وإنكارُ البُعدِ الغَيبيِّ، والارتكازُ على المَنهج الماديِّ التَّجريبيّ لدراسة ظاهرة الوَحي وتَحليلِها (أنسنة الظَّواهر).

و. يُلاحَظُ أنَّ خطاب الحَداثويِّينَ العربِ ليس مهتمًّا بتتبُّع ما جاء به الوحيُ، وليس لديه حرصٌ على دراسة أحكامه ولا معرفة مراداته، وإنَّما همُّهم إزاحةُ ما يَقف، باعتقادهم، في وجهِ "التَّجديد الفِكريّ" وبهدف مُحاكاة ما أخذوه من الفِكر الغربيّ.

ز. إنَّ النتائجَ التي يَدعو إليها أمثالُ (سروش) من استمرار "التَّجارب النَّبويّة وإثراء التَّجربة الدِّينية" تُشكِّلُ خطرًا على أُسس الدِّين ومُعتقَداتِه وضَروراتِه.

2 - التَّوصيات

أ. تعزيزُ المراكز المُتخصِّصة بدراسة الفكر الاستشراقيِّ والحَداثويِّ، خُصوصًا فيما يتعلَّق

1 - مونتغمري وات: محمّد في المدينة، ص.ص. 495-496.

بالقرآن الكريم، والبَحث والتَّدقيق على دراساتِهم وأبحاثهم.

ب. اختيار المناهج الغربيّة وتَقييمُها بعناية في البَحث الفكريِّ والدِّينيّ بما يَتناسب مع القِيَم الإسلاميّة، وتطوير مَنهجيّاتٍ إسلاميّةٍ مُعاصِرةٍ للدِّراسات الفِكريّة.

ج. البحث والتَّفكير في معالجة عقدةِ "التَّجديد الفِكريّ" عند بعضِ المُفكِّرينَ حتّى وإنْ تعارض التَّجديدُ مع أُسس الدِّين ومبادئه الأصيلة.

د. إعادة إنتاج النُّصوص والمباحث في الإعجاز البَلاغي للقرآن الكريم، وإظهارُ محاسن كلامه ولطائفه، وإخراجُها بشكل جاذب، وصِياغتُها بمستوًى أدبيٍّ يَتناسب ومُستوى الأفراد غيرِ المُتخصِّصينَ.

لائحة المصادر والمراجع

1 - القرآن الكريم

2 - أبو زيد، نصر حامد، النصّ والسلطة والحقيقة، ط1، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت والدار البيضاء، 1995م.

3 - الأصفهانيّ، أبو القاسم حسين بن محمَّد [الراغب]، المفردات في غريب القرآن، ط2، دفتر نشر الكتاب، لا.م، 1404هـ.

4 - إقبال، محمَّد، تجديد الفكر الدينيّ في الإسلام، ط2، تر. عبّاس محمود، دار الهداية، 1421هـ - 2000م.

5 - ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ط1، تح. عبد السلام محمّد هارون، مكتبة الإعلام الإسلاميّ، إيران - قمّ، 1404هـ.

6 - ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ط1، تح. عليّ شِري، دار إحياء التراث العربيّ، لبنان - بيروت، 1408هـ - 1988م.

7 - ابن هشام الحميري، عبد الملك، السيرة النبوية، ط2، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة، 1955م.

8 - بشير، مشتاق، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، ط1، دار النفائس، بيروت - لبنان، 1429هـ - 2008م.

9 - البغداديّ، عبد القادر، خزانة الأدب، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ، 1997م.

10 - جوادي آملي، عبد الله، حقيقة الدين، لا ط.، تر. عادل الغريب، مؤسَّسة العرفان الثقافيّة، 1436هـ - 2015م.

11 - الحديثيّ، بهجت عبد الغفور، أميّة بن أبي الصلت - حياته وشعره، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009م.

12 - درمنغام، إميل، الشخصيّة المحمّديّة - السيرة والمسيرة، ط3، تر. عادل زعيتر، الشعاع

للنشر والتوزيع، شارع الجزائر - المعادي - مصر، 2005م.

13 - رضا، رشيد محمّد، الوحي المحمّديّ، ط2، مؤسَّسة عزّ الدّين للطباعة والنّشر، 1352هـ.

14 - الريسونيّ، قطب، النصّ القرآنيّ من تهافت القرّاء إلى أفق التدبّر، لا ط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤن الإسلاميّة، المملكة المغربيّة، لا ت.

15 - السبحانيّ، جعفر، الإلهيّات على هدى الكتاب والسنّة والعقل، ط5، تقريرات: حسن مكيّ العامليّ، مؤسّسة الإمام الصادق، قم، لا. ت..

16 - ـــــــــ، سيّد المرسلين، لا ط.، تر. جعفر الهادي، جماعة المدرِّسين، إيران - قمّ، لا.ت..

17 - سروش، عبد الكريم، بسط التجربة النبويّة، تر. أحمد القبانجي، دار الفكر الجديد، العراق، 2006م.

18 - سنكليرتسدال، ويليام، مصادر الإسلام، الفصل الثاني ص12-11، نسخة إلكترونيّة عن موقع http://www.muhammadanism.org/.

19 - شعيب، قاسم، تكوين النصّ القرآني النبوّة والوحي والكتاب، ط1، الانتشار العربيّ، بيروت لبنان، 2016م.

20 - الشيرازيّ، محمد صدر الدين، الشواهد الربوبيّة، لا ط، ستاد انقلاب فرهنگي - مركز نشر دانشگاهي، تحقيق سيّد جلال الدين آشتياني، لا ت.

21 - الطباطبائيّ، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ط5، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران - قم، 1417هـ.

22 - العقّاد، عبّاس، اللغة الشاعرة، لا ط، دار المحرّر للنشر والتوزيع، لا ت.

23 - فلورفسكي، غوركي، الكتاب المقدّس الكنيسة والتقليد (وجهة نظر أرثوذكسيّة)، لا ط، تر. ميشال نجم، منشورات النور، 1984م.

24 - فنسنك؛ وآخرون، دائرة المعارف الإسلاميّة، ط4، تر. محمد ثابت الفندي وآخرون. (نسخة رقميّة من على موقع: أرشيف الإنترنت) <https://archive.org/details/daerat-al-maaref-01>.

25 - نولدكه، ثيودور، تاريخ القرآن، ط1، تر. جورج تامر، مؤسسة كونراد أدناور، بيروت، 2004م.